بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر
تفسير ابن كثير

قال الله تعالى: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"

"وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين"..
"الإسراء"

وقال عليه الصلاة والسلام:
"أشراف أمتي حملة القرآن" "الترمذي"

"من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف." "البخاري"

"إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه"
"البخاري"

إلى كل مؤمن ومؤمنة..
يريد السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة..
أهدي كتاب الله وتفسيره..
ليكون عوناً على فهم القرآن والعمل به..
وقد قال عليه الصلاة والسلام:
"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي". "متفق عليه"

السيد حسن عباس شربتلي

الطبعة السابعة
(منقحة)

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبع على نفقة
المحسن الكبير
معالي السيد حسن عبّاس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كلّ خير
يُوزع مجاناً ولا يُباع

مختصر

تفسير ابن كثير

مختصر لتفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

المجلد الثاني

اختصار وتحقيق
محمد علي الصابوني
أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم
بيروت

(١٧) سُورَةُ الإِسْرَاءِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿الذي أسرى بعبده﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿ليلاً﴾: أي في جنح الليل، ﴿من المسجد الحرام﴾: وهو مسجد مكة ﴿إلى المسجد الأقصى﴾[1] وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى ﴿الذي باركنا حوله﴾: أي في الزروع والثمار، ﴿لنريه﴾: أي محمداً ﴿من آياتنا﴾: أي العظام، كما قال تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾، ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أي السميع لأقوال عباده البصير بهم، فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

« ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء »

قال الإمام البخاري، عن أنس بن مالك، يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال

(١) قال الحافظ السهيلي: قوله عزّ وجلّ ﴿إلى المسجد الأقصى﴾: يعني بيت المقدس. وهو إيليا، ومعنى إيليا - بيت الله - ﴿وباركنا حوله﴾ - يعني الشام - والشام بالسريانية: الطيب، فسميت بذلك لطيبها وخصبها، وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكمله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه: إيلياء، وتفسيره بالعربية: بيت الله، ذكره البكري، وقال الطبري: كان داود عليه السلام قد همَّ ببنيانه فأوحى الله تعالى إليه « إنما يبنيه ابن لك طاهر اليد من الدماء »، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام، بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بني أيضاً في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام.

آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم، حتى أتوه ليـلة أُخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه، فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا بـه صدره ولغاديده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقـد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: فمرحباً به وأهلاً، يستبشر بـه أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بمـا يريد الله بـه في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال لـه جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه ورد عليه آدم، فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هـذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى من هذا؟ قال جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قـد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى، فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع علي أحداً.

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: «عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة». قال إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه: «يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا»، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعـاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب إن أمتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا، فقـال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد! قال: «لبيك وسعديك»، قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: «خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها»، قال موسى: قـد والله راودت بني إسرائيل على

أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، قال رسول الله ﷺ: «يا موسى قد والله استحييت من ربي عزّ وجلّ مما اختلف إليه». قال فاهبط باسم الله. قال واستيقظ وهو في المسجد الحرام، هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد.

وقد قال الحافظ البيهقي: في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عزّ وجلّ، يعني قوله: ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح. وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه». وفي رواية: «رأيت نوراً» أخرجه مسلم، وقوله: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

وقال الإمام أحمد، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة، أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل، فقيل له من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم يقول تعالى ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها، قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض عليّ في كل يوم وليلة، خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت: أي رب خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فعلت، فقلت: قد حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع إلى ربي وبين موسى، ويحط عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشراً، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت».

عن أنَس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق فوالله ما ركبك مثله، وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال، فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق، فقال: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، قال فلقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد، فرد السلام، ثم لقيه الثانية، فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام[1].

(رواية عن أنَس بن مالك عن مالك بن صعصعة)

قال الإمام أحمد، عن أنَس بن مالك: ان مالك بن صعصعة حدثه، أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم – وربما قال قتادة في الحجر – مضطجعاً إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فشقّ ما بين هذه إلى هذه»، إي من ثغرة نحره إلى شعرته، «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة، فغسل قلبي ثم حشا ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال، فقال الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟

(١) أخرجه ابن جرير ورواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة، وفي بعض ألفاظه غرابة.

قال: نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه، قال: « فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا، قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام، قال: هـذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصـالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا عيسى ويحيى وهمـا ابنا الخالة، قال: هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما، قال: فسلمت فردا السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت إذا يوسف عليه السلام، قال: هذا يوسف، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال مرحباً بالأخ الصـالح والنبي الصالح، قـال: ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قال: مرحباً بك ولنعم المجيء جاء، ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هـذا ؟ قال: جبريل، قيـل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جـاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى عليه السلام فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: فلما تجاوزته بكى، قيل له: ما يبكيك ؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممـا يدخلها من أمتي، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد بعث إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جـاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم فسلم عليـه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قـال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، قـال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى، قال: وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل ؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيـل والفرات، قال: ثم رفع إليّ البيت المعمور .

قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنَس، قال: « ثم أتيت بإناء من خمر وإناء مـن لـبن وإناء من عسـل قال: فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك، قال: ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم،

قال: فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال، قلت: خمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أُمرت؟قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً أُخر، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بثلاثين صلاة، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً أُخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال، قلت: قد سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم. فنفذت، فنادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي »[1].

(رواية أنَس عن أبي ذر)

قال البخاري، عن أنَس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح »، قال أنَس: فذكر أنه قد وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنَس: فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس، قال: مرحباً بالنبي الصالح

(١) أخرجه أحمد ورواه الشيخان من حديث قتادة بنحوه.

والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس، ثم مر بموسى فقال: مرحباً: بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا، قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم، قال الزهري: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حية الأنصاري كانا يقولان، قال النبي ﷺ: « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ». قال ابن حزم وأنَس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: « ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك »(١).

عن جابر بن عبدالله، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »(٢). عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتي بقدحين قدح من لبن وقدح من خمر، فنظر إليهما ثم أخذ قدح اللبن، فقال جبريل: أصبت هديت للفطرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه. وقال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبدالرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس، ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة. فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فبها سمي أبو بكر الصدّيق. قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يحدث، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »(٣).

(رواية شداد بن أوس)

روى الإمام الترمذي، عن جبير بن نفير، عن شداد بن أوس قال، قلنا: يا رسول الله، كيف أسري بك؟ قال: « صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً، فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض - أو قال بيضاء -

(١) هذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، ورواه مسلم في كتاب الإيمان بنحوه.

(٢) رواه أحمد وأخرجه الشيخان. (٣) أخرجه البيهقي عن سعيد بن المسيب.

فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب، فاستصعب علي، فرازها بأذنها، ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلني، فقال: صلِّ، فصليت، ثم ركبت، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بيثرب، صليت بطيبة، فانطلقت تهوي بنا، يقع حافرها عند منتهى طرفها، ثم بلغنا أرضاً، قال: انزل، ثم قال: صلِّ، فصلّيت، ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بمدين عند شجرة موسى، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور، فقال: انزل فنزلت، فقال: صلِّ، فصلّيت، ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى بن مريم، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني، فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إليّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما ثم هداني الله عزّ وجلّ فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على مثوات له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي، قلت: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: وجدتها مثل الحمة السنخة، ثم انصرف بي فررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في منامك، فقد علمت أنك أتيت بيت المقدس الليلة، فقال يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته، فقال ابو بكر: أشهد أنك لرسول الله، وقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! قال، فقال: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم فجمعه لهم فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار، حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ[1].

قال البيهقي، عن قتادة عن أبي العالية، قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس»، وأري مالكاً خازن جهنم، والدجال في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾، فكان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام، ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال: جعل موسى هدى لبني إسرائيل[2] عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة، عرفت أن الناس مكذبي». فقعد معتزلاً حزيناً، فمرّ به

---

(١) رواه الترمذي والبيهقي وقال: إسناده صحيح، قال ابن كثير: وهذا الحديث مشتمل على ما هو صحيح كما قال البيهقي، وعلى ما هو منكر كالصلاة في بيت المقدس، وسؤال الصدّيق عن نعت بيت المقدس.

(٢) رواه البيهقي ومسلم وأخرجاه عن قتادة مختصراً.

عدوّ الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: وما هو؟ قال: «إني أسري بي الليلة»، قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس». قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم»، قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: يا معشر بني كعب ابن لؤي، قال، فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة»، فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم». قال، فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل، فنعته وأنا أنظر إليه، قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه»[1].

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «حين أسري بي لقيت موسى عليه السلام - فنعته فإذا رجل حسبته قال: مضطرب، رَجِلُ الرأس، كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى - فنعته النبي ﷺ قال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني حمام، قال: ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة، - أو أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبدأني بالسلام»[2].

قال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي لما انتهيت إلى السماء السابعة، فنظرت فوق، فإذا رعد وبرق وصواعق، قال: وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء آكلو الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب»[3].

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي والنسائي. (٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) ورواه الإمام أحمد وابن ماجة.

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة والحق أنه عليه السلام أسري به (يقظة) لا (مناماً) من مكة إلى بيت المقدس راكباً على البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر، بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق. ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوته من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟ **على قولين**، **فالأكثرون** من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعد ذلك يقظة لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾. فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة مما كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال: ﴿أسرى بعبده ليلاً﴾. وقال تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم[1]. وقال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه والله أعلم. وقال آخرون: بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده وقد تعقبـه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن.

فائدة

وقد ذكر حديث الإسراء، من طريق أنَس، وقد تواترت الروايات في حديث الاسراء، عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأُبي بن كعب، وعبدالله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة، وأسماء رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنـه الزنادقة والملحدون ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾.

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة، ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب، ﴿ هدى ﴾ أي هادياً ﴿ لبني إسرائيل ألا تتخذوا ﴾ أي لئلا تتخذوا، ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح! فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ فاذكروا نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ، وقـد ورد في الأثر: أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً. قال الطبراني، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنمـا سمي نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. وفي الحديث: «إن الله ليرضى عن العبـد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»[1]. وفي حديث الشفاعة، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقـد سماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك»[2].

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه البخاري في حديث الشفاعة عن أبي هريرة مرفوعاً.

ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ
فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا
عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به. وقوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة، ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً، ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾. وقد اختلف المفسرون في هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه (جالوت) وجنوده سلط عليهم أولاً ثم أديلوا عليه بعد ذلك؛ وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير وعن غيره أنه (بختنصر) ملك بابل. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوّهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾، فإنهم كانوا قد تمردوا، وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن. وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب وهذا هو المشهور. وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ أي فعليها، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾، وقوله: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾[1] أي الكرة الآخرة، أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾: أي يهينوكم ويقهروكم، ﴿وليدخلوا المسجد﴾ أي بيت المقدس ﴿كما دخلوه أول مرة﴾: أي في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وليتبروا﴾: أي يدمروا ويخربوا ﴿ما علوا﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿تتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم﴾: أي فيصرفهم عنكم، ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد عنه. قال ابن عباس ﴿حصيراً﴾ أي سجناً. وقال الحسن: فراشاً ومهاداً، وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

(١) قال مجاهد: بعث عليهم بختنصر في الآخرة، كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿عباداً لنا﴾ قال ابن عباس وقتادة: =

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة: أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة، أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ الآية. وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقد تقدم في الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها(١)» وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك، ولهذا قال ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾: أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إلٰه غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً﴾، وقال تعالى: ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾، وقال: ﴿يكوّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وطلوع

= بعث الله عليهم جالوت، أخرجه ابن أبي حاتم. وفي العجائب للكرماني: قيل هم (سنحاريب) وجنوده. وقيل: العمالقة، وقيل: قوم مؤمنون.

(١) أخرجه أبو داود عن جابر، بتغيير وزيادة.

الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾، وقال تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ الآية. قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: ظلمة الليل وسدف النهار، وعن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل. وقال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، فمحونا آية الليل السواد الذي في القمر. وقال قتادة: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم، وقال ابن عباس ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله عزّ وجلّ.

وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾، وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وقال تعالى: ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، وقال: ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء، وقال الإمام أحمد عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لطائر كل إنسان في عنقه». وقوله: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب، يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً ﴿ منشوراً﴾ أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي، وقوله: ﴿ ألزمناه طائره في عنقه﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته، فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»[1]، وقال معمر عن قتادة ﴿ ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال: عمله، ﴿ ونخرج له يوم القيامة﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿ كتاباً يلقاه منشوراً﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر وإسناده قوي جيد كذا قال ابن كثير.

عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقرأ كتابك ﴾ الآية. فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿ومن ضل﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[1] أي لا يحمل أحد ذنب أحد؟ ولا يجني جان إلا على نفسه. كما قال تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقوله: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ إخبار عن عدله تعالى؛ وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسول إليه كقوله تعالى: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾ الآية، وقوله: ﴿وقال لهم خزنتها: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا: بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾، وقال تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.

مسألة

بقي ههنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً، هي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم! وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان. (**فالحديث الأول**): رواه الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفطرة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً».

---

(١) أخرج ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: هم من آبائهم، ثم سألته بعد ذلك، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت الآية: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وقال: هم على الفطرة – أو قال في الجنة – كما في اللباب.

(الحديث الثاني) : عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين، قال: « هم مع آبائهم »، وسئل عن أولاد المشركين فقال: « هم مع آبائهم »، فقيل: يا رسول الله ما يعملون ؟ قال: « الله أعلم بهم »(١) . **(الحديث الثالث)** : عن ثوبان أن النبي ﷺ عظَّم شأن المسألة قال: « إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولاً، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم، فيقولون: ربنا أخرجنا أو أجرنا منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم، فيقول: اعمدوا إليها فادخلوها، فينطلقون، حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا، وقالوا: ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها، فيقول: ادخلوها داخرين »، فقال نبي الله ﷺ: « لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً »(٢) . **(الحديث الرابع)**: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء »، وفي رواية قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً، قال: « الله أعلم بما كانوا عاملين »، وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام » . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ عن الله عزّ وجلّ أنه قال: « إني خلقت عبادي حنفاء » . **(الحديث الخامس)** : عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة »، فناداه الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين، قال: « وأولاد المشركين »(٣) . وقال الطبراني عن أبي رجاء عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: « هم خدم أهل الجنة » . **(الحديث السادس)** : عن خنساء بنت معاوية، من بني صريم قالت: حدّثني عمي قال، قلت: يا رسول الله من في الجنة ؟ قال: « النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة »(٤) . فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال: « نعم، وأولاد المشركين ». ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام: « هم مع آبائهم » . ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها . وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول الذي حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن أهل السنّة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في « كتاب الاعتقاد » . وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد . وقد ذكر الشيخ ابن عبد البر أن أحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها لأن الآخرة دار جزاء وليست

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي .
(٢) أخرجه الحافظ البزار في مسنده .
(٣) رواه الحافظ البرقاني في المستخرج على البخاري .
(٤) أخرجه الإمام أحمد .

بدار عمل ولا ابتـلاء، فكيف يكلفون دخول النـار، وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفسـاً إلا وسعها .

(**والجواب**) عما قال: ان أحـاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قـد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله: إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنّة والجماعة من امتحان الأطفال . وقـد قال تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾ الآية . وقـد ثبت في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً ، كلما أراد السجود خر لقفاه . وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير مـا هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم مـا أغدرك ! ثم يأذن له في دخول الجنة، وأما قوله: فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم، فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحـد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم. وأيضاً فقد ثبتت السنّة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقـد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنـه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك؛ وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فما قيل في غـداة واحدة سبعين ألفـاً، يقتل الرجل أباه وأخـاه وهم في عماية غمامة أرسلهـا الله عليهم، وذلك عقوبـة لهم على عبادتهم العجل، وهـذا أيضاً شاق على النفوس جـداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم .

فصل

إذا تقرر هذا ، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال، (**أحدها**): انهم في الجنة، واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين، (**والقول الثاني**): انهم مع آبائهم في النار: واستدل عليه بمـا روي عن عبدالله بن أبي قيس، أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفـار فقالت، قال رسول الله ﷺ: « هم تبع لآبائهم ». فقلت: يا رسول الله بلا أعمال ؟ فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين »[1] . (**والقول الثالث**): التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: « الله أعلم بما كانوا عاملين ». وهو في الصحيحين، ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة ، لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة، كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف، والله أعلم، وليعلم أن

(١) أخرجه الإمام أحمد .

هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس وهو الذي نقطع بـه إن شاء الله عزّ وجلّ.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

اختلف القرّاء في قراءة قوله: ﴿أمرنا﴾، فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، **فقيل** معناه: أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ قالوا معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، وقيل معناه: أمرهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة[1]. وقال ابن جرير: يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء، **قلت**: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿أمَّرنا مترفيها﴾، قال ابن عباس قوله ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ الآية، وعنه قال: أكثرنا عددهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأنه قـد أهلك أمماً من المكذبين للرسل بعد نوح، ودل هـذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس. كان بـين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له، بل إنمـا يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواهـا من الآيات، فإنه قال: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم﴾ أي في الدار الآخرة ﴿يصلاها﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه، ﴿مذموماً﴾ أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي، ﴿مدحوراً﴾ مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. وفي الحديث: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولهـا يجمع من لا عقل له»[2]. وقوله: ﴿ومن أراد الآخرة﴾

---

(١) روي هذا القول عن سعيد بن جبير وابن عباس وهو قول حسن ورأي سديد.

(٢) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً.

وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعى لهـا سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى ﴿ كلا ﴾ أي كل واحـد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، ولهذا قـال: ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي لا يمنعه أحـد ولا يرده راد، قال قتادة ﴿ محظوراً ﴾، أي منقوصاً، وقال الحسن وغيره: أي ممنوعاً، ثم قال تعالى: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلـك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾: أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»، ولهذا قال تعالى: ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيهـا المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ إي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك ضراً ولا نفعاً، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله. فيوشك الله له برزق عاجل، أو آجل»[1] .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فان القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهـد ﴿ وقضى ﴾ يعني

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

وصّى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾، وقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء، ﴿ولا تنهرهما﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تنفض يدك عليهما، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ أي ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي تواضع لهما بفعلك، ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، (منها) الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال: «آمين آمين آمين»، قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين فقلت آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل آمين، فقلت آمين»[1]. (**حديث آخر**): روى الإمام أحمد عن أبي مالك القشيري قال، قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه»[2]. (**حديث آخر**): روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف: رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة». (**حديث آخر**): عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله هل بقي علي من بر أبويّ شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما»[3]. (**حديث آخر**): عن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت الغزو، وجئتك أستشيرك، فقال: «فهل لك من أم؟» قال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها»[4]. (**حديث آخر**): قال الحافظ البزار في مسنده عن سليمان ابن بريدة، عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل ﷺ: هل أديت حقها؟ قال: «لا، ولا بزفرة واحدة»[5].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين﴾، وقوله: ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾

(١) أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة.
(٢) ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة وفيه زيادات أخر.
(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.
(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.
(٥) قال ابن كثير: في سنده الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف.

قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المطيعين المحسنين. وعن ابن المسيب: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، وعن عطاء بن يسار، وسعيد ابن جبير، ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير. وعن عبيد بن عمير قال: كنا نعد الأوّاب من يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال هو التائب من الذنب، الرجّاع من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيبون تائبو ن عابدون لربنا حامدون».

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: «أمك وأباك ثم أدناك أدناك»، وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه». وقوله: ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ الآية، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾: أي أشباههم في ذلك، قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد، وقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾: أي في التبذير والسفه، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾: أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته، وقوله: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك﴾ الآية: أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾: أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله»[1].

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله (يد الله مغلولة) أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾، وهذا من باب اللف والنشر، أي فتقعد إن

(١) هكذا فسره مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة فسروا القول الميسور بالوعد.

بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه[1] فتكون كالحسير، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير. وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانة وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع »[2]. وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت، قال رسول الله ﷺ: « أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا توعي فيوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك »، وفي لفظ: « ولا تحصي فيحصي الله عليك ». وفي صحيح مسلم، قال رسول رسول الله ﷺ: « إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك ». وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً »، وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: « ما نقص مالٌ من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله ». وفي حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا »[3]. وروى البيهقي عن الأعمش، عن أبيه قال، قال رسول ﷺ: « ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطاناً ». وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « ما عال من اقتصد »، وقوله: ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر. كما جاء في الحديث: « إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ». وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (٣١)

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾. وفي الأنعام: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾: أي من فقر ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾، وقوله: ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾: أي ذنباً عظيماً، وفي الصحيحين عن عبد الله

(١) فسر ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج الآية بأن المراد هنا البخل والسرف.

(٢) هذا لفظ البخاري في الزكاة.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم عن ابن عمرو.

ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك »، قلت: ثم أي ؟ قال: « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك »، قلت: ثم أي ؟ قال: « أن تزاني بحليلة جارك » .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا، وعن مقاربته، ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ أي ذنباً عظيماً، ﴿وساء سبيلاً﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً، روى الإمام أحمد، عن أبي أمامة، أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه . فقال: « ادنه »، فدنا منه قريباً، فقال: « اجلس » فجلس ، فقال: « أتحبه لأمك ؟ » قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: « أفتحبه لابنتك ؟ » قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: « أفتحبه لأختك ؟ » قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: « أفتحبه لعمتك ؟ » قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: « أفتحبه لخالتك ؟ » قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه »، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1] . وعن النبي ﷺ قال: « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له »[2] .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وفي السنن: « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم ». وقوله: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾: أي سلطة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه، إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقوله: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ أي فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل بـه أو يقتص من غير القاتل، وقوله: ﴿إنه كان منصوراً﴾: أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وقدراً .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً .

يقول تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة، ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾. وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم». وقوله: ﴿وأوفوا بالعهد﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه، ﴿إن العهد كان مسئولاً﴾ أي عنه. وقوله: ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾ أي من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ وهو الميزان، قال مجاهد هو العدل بالرومية، وقوله: ﴿المستقيم﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا اضطراب: ﴿ذلك خير﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، قال قتادة: أي خير ثواباً وأحسن عاقبة، وكان ابن عباس يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال. وهذا الميزان.

۞ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس: لا تقل، وقال العوفي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله، ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾. وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وفي سنن أبي داود: «بئس مطية الرجل زعموا». وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا». وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل». وقوله: ﴿كل أولئك﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كان عنه مسئولاً﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه.

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي متبختراً متمايلاً مشي الجبارين، ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك، ﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾: أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير»، ورأى البختري العابد رجلاً من آل (علي) يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا! إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها الرجل بعد. ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء

وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض»[١]. وقوله: ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾، أي كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى هنا، (فسيئه) أي فقبيحه مكروه عند الله.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً﴾ أي تلومك نفسك، ويلومك الله والخلق ﴿مدحوراً﴾: أي مبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ أي خصصكم بالذكور ﴿واتخذ من الملائكة إناثاً﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ أي في زعمكم أن لله ولداً ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾: أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ؛ فينزجرون عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وما يزيدهم﴾ أي الظالمين منهم ﴿إلا نفوراً﴾ أي عن الحق وبعداً عنه.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا عن سعيد عن محسن.

زلفاً: لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿علواً كبيراً﴾: أي تعالياً كبيراً، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾

يقول تعالى تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً﴾. وقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم[1]. وقال الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله منه». وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نقيقها تسبيح. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً عليه السلام قال لابنه: يا بني آمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق»، قال الله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾[2]. وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح، وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه.

وقال آخرون: إنما يسبح من كان فيه روح من حيوان ونبات، قال قتادة في قوله ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال: كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه، وقال الحسن والضحّاك: كل شيء فيه الروح. وقد يستأنس

(١) قال ابن كثير: وهو حديث مشهور في المسانيد.

(٢) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: في إسناده ضعف.

لهذا القول بحديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا[1]»، قال بعض من تكلم عن هذا الحديث من العلماء، إنما قال ما لم ييبسا: لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم. وقوله: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾ الآية. وقال: ﴿وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة﴾: الآيتين، ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ إلى أن قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾ إلى آخر السورة.

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن[2]. جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾: أي مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء وقوله: ﴿حجاباً مستوراً﴾ بمعنى ساتر، وقيل مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ جاءت العوراء أم جميل، ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول: مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به منها: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾، قال، فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت، ما هجاك، قال فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها[3]. وقوله: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾

---

(١) أخرجه الشيخان عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الكتاب قالوا – يهزؤن به –: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وإذا قرأت القرآن﴾ الآية.

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر.

وهي جمع كنان: الذي يغشى القلب ﴿أن يفقهوه﴾: أي لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ إي إذا وحدت الله في تلاوتك وقلت: لا إله إلا الله ﴿ولوا﴾ أي أدبروا راجعين ﴿على أدبارهم نفوراً﴾، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ الآية، قال قتادة: إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم فضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها.

* ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم بما قالوا: من أنه رجل مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ولهذا قال تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً، قال محمد بن إسحاق في السيرة: إن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ

هو قل عسى أن يكون قريبا ﴿٥١﴾ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي تراباً، ﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي يوم القيامة بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة * أئذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذاً كرة خاسرة﴾، وقوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ الآية، فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم، فقال: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت، وعن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية لو كنتم موتى لأحييتكم[1]، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده. وقال مجاهد ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾: يعني السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم، وقوله تعالى ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾: أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾. قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاءً، والإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، يقال نغضت سنه: إذا تحركت وارتفعت من منبتها. وقال الراجز: ونغضت من هرم أسنانها.

وقوله: ﴿ويقولون متى هو﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، وقال تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، وقوله: ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي احذروا ذلك فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت قريب، وقوله تعالى: ﴿يوم يدعوكم﴾ أي الرب تبارك وتعالى، ﴿إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾: أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كُنْ فيكون﴾، وقوله ﴿فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾: أي إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾: أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته، قال ابن عباس ﴿فتستجيبون بحمده﴾: أي بأمره، وقال قتادة: بمعرفته وطاعته، وقال بعضهم ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾: أي وله الحمد في كل حال، وقد جاء في الحديث: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله إلا الله». وفي رواية يقولون: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»[2]، وقوله تعالى ﴿وتظنون﴾: أي يوم تقومون من قبوركم، ﴿إن لبثتم﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿إلا قليلاً﴾ كقوله تعالى:

---

(١) وكذلك قال سعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم.

(٢) الرواية الثانية: أخرجها الطبراني عن ابن عمر.

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾. وقال تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ .

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

يأمر تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدوّ لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزغ في يده فربما أصابه بها، ففي الحديث: « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار »[1]. وفي الحديث: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ههنا »، قال حماد: وقال بيده إلى صدره: « وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدثٌ يحدثه أحدهما، والمحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر »[2] .

* رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق، ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه، ﴿ أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك يا محمد عليهم وكيلاً ﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿ وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾، كما قال تعالى: ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾، وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء »، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾. وفي الشورى في قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور، وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع والله الموفق. وقوله تعالى: ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ تنبيه على فضله وشرفه، عن النبي ﷺ قال: « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرؤه قبل أن يفرغ »[3] يعني القرآن .

---

(١) رواه أحمد وأخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً .

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لا يملكون كشف الضر عنكم﴾ أي بالكلية، ﴿ولا تحويلاً﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر، قال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة، والمسيح وعزيراً، وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ قال ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا، وفي رواية قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿أولئك الذين يدعون﴾ الآية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفي رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره، وقال ابن عباس: هم عيسى وعزير والشمس والقمر، وقال مجاهد: عيسى والعزير والملائكة، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله: ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي القربة، كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿أيهم أقرب﴾، وقوله تعالى: ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات، وقوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياذاً بالله منه.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عذاباً شديداً﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾، وقال تعالى: ﴿فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً﴾، وقال: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ الآيات.

﴿۞ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا، كما هلكت من كان

قبلهم من الأمم. قال: « لا، بل استأن بهم »، وأنزل الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾[1] الآية. وعن ابن عباس قال، قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك، قال: « وتفعلون؟ » قالوا: نعم، قال، فدعا فأتاه جبريل، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: « بل باب التوبة والرحمة ».

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: « يا آل عبد مناف إني نذير » فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك وإن سليمان سخر له الريح والجبال، وإن موسى سخر له البحر، وإن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنتخذ محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. قال، فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي فلما سري عنه قال: « والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد. فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين »، ونزلت: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾، وقرأ ثلاث آيات، ولهذا قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾ أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال تعالى في المائدة: ﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾، وقال تعالى عن ثمود حين سألوا الناقة: ﴿قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾: أي دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله ﴿فظلموا بها﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون، ويذكرون ويرجعون،[2] ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال:

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن ابن عباس.

(٢) أخرج أبو يعلى عن أم هانئ: أنه ﷺ، لما أسري به أصبح يحدث نفراً من قريش يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله: ﴿وما جعلنا الرؤيا﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن الحسن نحوه. وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي: أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً مهموماً، فقيل له: ما لك يا رسول الله؟ لا تهتم فإن رؤياك فتنة لهم فأنزل الله: ﴿وجعلنا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير من حديث سهل بن سعد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عمرو بن العاص، ومن حديث يعلى بن قرة، ومن مرسل سعيد بن المسيب نحوها. قال السيوطي: وأسانيدها ضعيفة.

يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وفي الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عزّ وجلّ يخوف بهما عباده؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره - ثم قال - يا أمة محمد والله ما أحد أغيرَ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد والحسن وقتادة في قوله: ﴿إن ربك أحاط بالناس﴾ أي عصمك منهم. قال البخاري، عن ابن عباس ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم.[1] ﴿إلا فتنة﴾: أي اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم[2]، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك، حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا[3]، وكل من قال إنها ليلة الإسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم، واختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي في الرؤيا والشجرة، وقوله ﴿ونخوفهم﴾: أي الكفار، بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾: أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له، افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، وقال أيضاً: أرأيتك، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ﴾ الآية، قال

---

(١) أخرجه البخاري والإمام أحمد.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لما ذكر الله هذا الزقوم، خوف به هذا الحي من قريش، قال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي خوفكم به محمد؟ قالوا: لا. قال: الثريد بالزبد، أما لئن أمكننا منها لنزقمنها زقماً، فأنزل الله تعالى: ﴿والشجرة الملعونة﴾ الآية، وأنزل: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾.

(٣) روي ذلك عن ابن عباس ومسروق والحسن البصري وغير واحد.

ابن عباس ﴿لأحتنكن﴾ يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوين، وقال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة، والمعنى: أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿اذهب﴾ فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى ﴿فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾، ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي على أعمالكم ﴿جزاء موفوراً﴾ قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه، وقوله تعالى: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي استخفهم بذلك، وقال ابن عباس في قوله ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية الله عزّ وجلّ، واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم، فإن الرجل جمع راجل، كما أن الركب جمع راكب، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كقوله تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾ أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه، تقول العرب: أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه، ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب، ومنه اشتقاق الجلبة، وهي ارتفاع الأصوات، وقوله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى، وقال عطاء: هو الربا، وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام، والآية تعم ذلك كله، وقوله: ﴿والأولاد﴾ يعني أولاد الزنا[1]، وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد، مجّسوا وهوّدوا ونصّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجزأوا من أموالهم جزءاً للشيطان، وقال أبو صالح عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ معنى الشركة فيه، بمعنى دون معنى، فكل ما عصي الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة،

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والضحّاك.

وهذا الذي قاله متجه. وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»، وقوله تعالى: ﴿وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول، إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً. وفي الحديث: «إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[1] ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره.

* رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم، ولهذا قال: ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه، والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه، وقوله تعالى: ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ أي سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.

* أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى أفحسبتم بخروجكم إلى البر، أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر، أو يرسل عليكم حاصباً، وهو المطر الذي فيه حجارة[2]، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾، وقال: ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من طين﴾، وقوله: ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه.

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) قاله مجاهد وغير واحد من السلف.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: أم أمنتم أيها المعرضون عنا، بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية، ﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ أي يقصف الصواري ويغرق المراكب، قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها، وقوله ﴿فيغرقكم بما كفرتم﴾: أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى، وقوله: ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾، قال ابن عباس: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، ﴿وحملناهم في البر﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة. عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا! أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبّح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان»[1].

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط﴾ الآية، وقال بعض

(١) رواه الحافظ الطبراني وأخرجه عبد الرزاق عن زيد بن مسلم موقوفاً وابن عساكر عن أنس بن مالك مرفوعاً.

السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ، وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم واختاره ابن جرير، وروي عن مجاهد أنه قال: بكتبهم، فيحتمل أن يكون أراد ما روي عن ابن عباس في قوله ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أي بكتاب أعمالهم[1]، وهذا القول هو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾، وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ الآية، ويحتمل أن المراد ﴿بإمامهم﴾ أي كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾. وفي الصحيحين: «لتَتَّبعْ كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث، وقال تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بدّ أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، كقوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته، كقوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ الآيات، وقوله تعالى: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ الفتيل: هو الخيط المستطيل في شق النواة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾، قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم أتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافرون فيسود وجهه ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا به، فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه، فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا»[2]. وقوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿أعمى﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ أي كذلك يكون ﴿وأضل سبيلاً﴾ أي وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجّار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

(١) وهو قول أبي العالية والحسن والضحّاك.
(٢) أخرج الحافظ أبو بكر البزار.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾

قيل: نزلت في اليهود حين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر، وأرض الأنبياء، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث[1]. **وقيل**: نزلت في كفار قريش لما هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ الآية.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ قيل: لغروبها[2]، وقال ابن عباس: دلوكها زوالها[3]، فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس، فمن قوله ﴿لدلوك الشمس إلى غسق الليل﴾ وهو ظلامه؛ أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله: ﴿وقرآن الفجر﴾ يعني صلاة الفجر؛ وقد ثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه ولله الحمد، ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾[4]. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[5].

---

(١) أخرجه البيهقي عن عبدالله بن غنم، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر، لأن النبي ﷺ غزا تبوك عن أمر الله لا عن أمر اليهود.

(٢) قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد.

(٣) رواه نافع عن ابن عمر، وبه قال الحسن والضحاك وقتادة وهو الأظهر.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٥) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم – وهو أعلم بكم – كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون »[1]. وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء. وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: « صلاة الليل »[2]، ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم[3]، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه، وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء، ويحمل على ما كان بعد النوم، واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نافلة لك﴾، فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة، رواه العوفي عن ابن عباس واختاره ابن جرير، وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عن صلواته النوافل الذنوب التي عليه

وقوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الخلائق كلهم، وخالقهم تبارك وتعالى، قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل، ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادى: يا محمد « فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك ومنك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت ». فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجلّ، وقال ابن عباس: المقام المحمود مقام الشفاعة، وكذا قال مجاهد والحسن البصري، وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود. **قلت**: لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: « أنا لها، أنا لها »، كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى، ومن ذلك، أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. (٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

(٣) قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد.

شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

روى البخاري، عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. وفي رواية: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقه باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم. وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[1] وعن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»[2].

حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك، فيقولون: لو شفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيي ربه عزّ وجلّ من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتوه، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة، فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا عيسى، عبد الله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف - فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين، قال أنَس: حتى استأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما يشاء الله أن يدعني، قال، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه؛ فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، قال: ثم أعود الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطيه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فقال: يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنَس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله

(١) أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي بن كعب.

إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة »[١] .

(الثاني) حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: عن كعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي عزّ وجلّ حلة خضراء، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقـام المحمود »[٢] .

(الثالث) حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: عن أبي الدرداء، قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك»، فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال: « هم غر محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم »[٣] .

(الرابع) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممَّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنـا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم: ربي قـد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقـد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنـا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول نوح: إن ربي قـد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم؛ فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنـا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول: إن ربي قـد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى؛ فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنـا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قـد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها،

---

(١) أخرجاه في الصحيحين ورواه أحمد واللفظ له .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن كعب بن مالك .

(٣) أخرجه أحمد أيضاً عن أبي الدرداء .

نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى؛ فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ؛ فيأتون محمداً ﷺ، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عزّ وجلّ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب؟ فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[1].

وفي **صحيح مسلم** رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع». وعن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه». وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه - قال النبي ﷺ - فأكون أول من يدعى وجبريل عن يمين الرحمن تبارك وتعالى - والله ما رآه قبلها - فأقول: أي رب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ، فيقول الله عزَّ وجلَّ صدق، ثم أشفع فأقول يا رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض، قال فهو المقام المحمود»[2].

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾، وقال الحسن البصري: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ الآية. وقال قتادة: ﴿أدخلني مدخل صدق﴾ يعني المدينة ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ يعني مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد، وهذا القول هو أشهر الأقوال، وهو اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ قال الحسن البصري: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة: إن نبي

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وهو حديث مرسل.

الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله، جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم، قال مجاهد: ﴿سلطاناً نصيراً﴾ حجة بينة، واختار ابن جرير الأول، لأنه لا بدّ مع الحق من قهر، لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات - إلى قوله - وأنزلنا الحديد﴾ الآية. وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع، وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ تهديد ووعيد لكفّار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم بـه، وهو ما بعثه الله بـه من القرآن والإيمان، والعلم النافع وزهق باطلهم: أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾. عن عبدالله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[1]. وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنماً تُعبد من دون الله، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

۞ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة، يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه، واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك؛ فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. وقال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾، قال قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾: أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

۞ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه. قال مجاهد:

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

بَعْد عنا، وهذا كقوله تعالى: ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾، وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب والحوادث والنوائب ﴿كان يئوساً﴾ أي قنط أن يعود، يحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته، ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾، وقوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ قال ابن عباس: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: على دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، وهذه الآية – والله أعلم – تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾ الآية. ولهذا قال: ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

۞ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

عن عبدالله هو ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قال، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه[1]. وهذا السياق يقتضي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿ويسألونك عن الروح﴾، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة، ما قال الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيرا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال، وأنزل الله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾ الآية. وقد روى ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية، فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾. قال: فنزلت: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ الآية.

وقال محمد بن إسحاق، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود، وقالوا: يا محمد! ألم يبلغنا عنك أنك تقول ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «كلاً قد عنيت»، فقالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم». وأنزل الله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾،

---

(١) أخرجه البخاري ورواه أحمد واللفظ له عن عبدالله بن مسعود.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال : (**أحدها**) أن المراد أرواح بني آدم ، عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فأتاه جبريل فقال له: ﴿ قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾. فأخبرهم النبي ﷺ بذلك. فقالوا: من جاءك بهذا ؟ قال: « جاءني بـه جبريل من عند الله »، فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدونا، فأنزل الله : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾، وقيل: المراد بالروح ههنا جبريل، قاله قتادة، وقيل : المراد به ههنا ، ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها .

وقوله تعالى: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾: أي من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحـد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بـه تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتي إن شاء الله في قصـة موسى والخضر، أن الخضر قال: يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخـذ هذا العصفور من هذا البحر، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . وقال السهيلي، قال بعض الناس: لم يجبهم عما سألوا لأنهم سألوا على وجه التعنت، وقيل أجابهم، ثم ذكر السهيلي: الخلاف بـين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر: أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وحاصل القول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه ، لا من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم .

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثم نبه تعالى على شرف هـذا القرآن العظيم فأخبر أنـه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لمـا أطاقوا ذلك ولمـا استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال ولا عديل ؟ وقوله: ﴿ ولقد صرفنا للنـاس ﴾ الآية، أي بينا لهم الحجج، والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي جحوداً للحق، ورداً للصواب .

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس : إن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختري، والوليد ابن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوَّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال رسول الله ﷺ : « ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ». فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا، منهم (قصي بن كلاب) فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً، كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ! فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك »، فقالوا: يا محمد ! أما علم ربك أنا سنجلس معك،

ونسألك عمــا سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا .

فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً، لمــا فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولمــا رأى من مباعدتهم إياه[١] . ولو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنمـا يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: « بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة » .

وقوله تعالى: ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾. وقوله تعالى: ﴿أو تسقط السماء كما زعمت﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهي وتدلي أطرافها فعجّلْ ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً، أي قطعاً، كذلك سأل قوم شعيب فقالوا: ﴿أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة المبعوث رحمة للعــالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى (عبدالله بن أبي أمية) الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾. قال ابن عباس ومجاهد: هو الذهب، أي يكون لك بيت من ذهب، ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي تصعد في سلم، ونحن ننظر إليك، ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾، قال مجاهد: أي مكتوب فيه، إلى كل واحد واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه، وقوله تعالى : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس، أن يتقدم أحــد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأمركم فيما سألتم إلى الله عزّ وجلّ، وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: « عرض علي ربي عزّ وجلّ ليجعل لي بطحاء مكة

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً – أو نحو ذلك – فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»(١).

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وما منع الناس﴾ أي أكثرهم، ﴿أن يؤمنوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾؟ وقال تعالى: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا﴾ الآية. وقال فرعون وملؤه: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾؟ وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾، والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي كما أنتم فيها ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ أي من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى مرشداً نبيّه ﷺ إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به إنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾. وقوله ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾: أي علماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة، ولهذا قال:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، أي يهدونهم، كما قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾، وقوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾، عن أنس بن مالك: قيل يا رسول الله كيف يحشر

(١) رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن.

الناس على وجوههم ؟ قال: « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم »(١) . وعن حذيفة بن أسيد، قال، قام أبو ذر فقال: يا بني غفار قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج، فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار(٢). وقوله ﴿ عمياً﴾ أي لا يبصرون ﴿ وبكما﴾ يعني لا ينطقون ﴿ وصماً﴾ لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا، بكما وعمياً وصماً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ﴿ مأواهم﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿ جهنم كلما خبت﴾ قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد: طفئت ﴿ زدناهم سعيراً﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ .

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه، لأنهم كذبوا ﴿ بآياتنا﴾ أي بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث، ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾، أي بالية نخرة ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه، من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض، نعاد مرة ثانية ؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقال: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض، ولم يعي بخلقهن بقـادر على أن يحيي الموتى﴾ الآية، وقال: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾، وقال ههنا: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قـادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، كما بدأهم، وقوله: ﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ ، وقوله: ﴿ فأبى الظالمون﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إلا كفوراً﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم .

* قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس: أي الفقر، أي خشية أن تُذْهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ قال ابن عباس وقتادة. أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾ ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه. وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه؟».

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه، فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي «العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم» آيات مفصلات، قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا والخمس في الأعراف والطمس والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: (هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم)، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري: السنين ونقص الثمرات واحدة، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون، ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً وما نجعت فيهم؛ فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى – وقد شاهد منه ما شاهد من هذه **الآيات** – ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف – إلى قوله في تسع آيات – إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾، فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبيّن الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصّلها، وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة: منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتيه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم، فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي حججاً وأدلة

على صدق ما جئتك به، ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ أي هالكاً، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس: ملعوناً، وقال الضحّاك ﴿ مثبوراً ﴾: أي مغلوباً[١]، والهالك كما قال مجاهد، يشمل هذا كله. ويدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله، وقوله: ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾، وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية، نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع فإن أهل مكة همّوا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى: ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ الآيتين، ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: كذلك وأورثناها بني إسرائيل، وقال ههنا: ﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم، قال ابن عباس: ﴿ لفيفاً ﴾ أي جميعاً[٢].

* وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد، إنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه، وقوله ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً، لم يشب بغيره ولا زيد فيه، ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق فإنه نزل بـه شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى، وقوله: ﴿ وما أرسلناك ﴾ أي يا محمد ﴿ إلا مبشراً ونذيراً ﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين، وقوله: ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ بالتخفيف، ومعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة، قاله ابن عباس، وعن ابن عباس ﴿ فرّقناه ﴾ بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً، ولهذا قال ﴿ لتقرؤه على الناس ﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿ على مكث ﴾ أي مهل ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ شيئاً بعد شيء.

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

(١) وهو قول لابن عباس أيضاً.

(٢) وهو قول مجاهد وقتادة والضحّاك.

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم بـه من هذا القرآن العظيم ﴿ آمنوا بـه أو لا تؤمنوا ﴾ أي سواء آمنتم بـه أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله، ونوّه بذكره في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآن ﴿ يخرون للأذقان ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿ سجداً ﴾ أي لله عزّ وجلّ، شكراً على ما أنعم بـه عليهم، ولهذا يقولون ﴿ سبحان ربنا ﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنـه لا يخلف الميعاد، ولهذا قالوا: ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾، وقوله: ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ أي خضوعاً لله عزّ وجلّ، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

يقول تعالى: ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عزّ وجلّ، المانعين من تسميته بالرحمن، ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم ﴿ الله ﴾ أو باسم ﴿ الرحمن ﴾ فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ له الأسماء الحسنى، يسبّح له ما في السموات والأرض ﴾ الآية. وقـد روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم»، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية، وكذا روي عن ابن عباس رواهما ابن جرير(١)، وقوله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة، ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾: قال كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال، فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾: أي بقراءتك فيسمـع المشركون فيسبون القرآن، ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾(٢). وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، استرق

(١) أخرج البخاري عن ابن عباس قال: نزلت ورسول الله مختفٍ بمكة، وكان إذا صلّى بأصحابه ورفع صوته بالقرآن، فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سبوه ومن أنزله ومن جاء به فنزلت. وأخرج البخاري أيضاً عن عائشة: أنها نزلت في الدعـاء، وأخرج ابن جرير مثله، ثم رجح الأول لأنها أصح سنداً، وكذا رجحها النووي وغيره، وقال الحافظ ابن حجر: لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة. وأخرج ابن جرير والحاكم عن عائشة: أنها نزلت في التشهد، وهي مبينة لمرادها في الرواية السابقة.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس

السمع منهم دونهم فرقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ فيتفرقوا عنك ﴿ولا تخافت بها﴾ أي فلا يسمع من أراد أن يسمع فينتفع به، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ .

قال ابن جرير، عن محمد بن سيرين، قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي عزّ وجلّ وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء، وقوله: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص، فقال: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي، أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له، قال مجاهد في قوله: ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد، ﴿وكبره تكبيراً﴾ أي عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

[آخر تفسير سورة الإسراء . ولله الحمد والمنة] .

* * *

(١٨) سورة الكهف مكية
وآياتها عشر ومائة

« ذكر ما ورد في فضلها وأنها عصمة من الدجـال »

عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »[١]، **طريق أخرى** : قال الإمام أحمد، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال ». ورواه مسلم أيضاً والنسائي، وفي لفظ النسائي: « من قرأ عشر آيات من الكهف » فذكره. **حديث آخر** : عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال »[٢] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قد تقدم في أول التفسير ، أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة، عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم بـه من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، واضحاً بيناً جلياً، نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتـدلاً مستقيماً، ولهذا قال: ﴿ قيماً ﴾ أي مستقيماً، ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لمن خالفه وكذبه، ولم يؤمن بـه، ينذره بأساً

---

(١) رواه مسلم وأبوداود والنسائي والترمذي .

(٢) أخرجه النسائي في سننه .

شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الأخرى، ﴿ من لدنه ﴾ أي من عند الله، ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي بهذا القرآن، الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة، ﴿ ماكثين فيه ﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿ أبداً ﴾ دائماً، لا زوال له ولا انقضاء، وقوله: ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب، في قولهم نحن نعبد الملائكة، ، وهم بنات الله ﴿ ما لهم به من علم ﴾، أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه، ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي لأسلافهم، ﴿ كبرت كلمة ﴾ كبرت كلمتهم هذه، وفي هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم. ولهذا قال: ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش (النضر ابن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ؛ فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ! أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتم عنه »، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عزّ وجلّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من خبر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عزّ وجلّ ﴿ ويسألونك عن الروح ؟ قل الروح ﴾ الآية .

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ ، وقال: ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ ، وقال: ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ ، باخع : أي مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم

إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾[1] يعني القرآن، ﴿أسفاً﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً، قال قتادة: قاتلٌ نفسك غضباً وحزناً عليهم. وقال مجاهد: جزعاً، والمعنى متقارب أي: لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾. عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وذهابها، وخرابها، فقال تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً ﴿صعيداً جرزاً﴾ لا ينبت ولا ينتفع به، كما قال ابن عباس: يهلك كل شيء عليها ويبيد، وقال مجاهد ﴿صعيداً جرزاً﴾ بلقعاً. وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾؟.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف ﴿أم حسبت﴾ يعني يا محمد ﴿أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء- أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال مجاهد: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وقال ابن عباس: الذي آتيتك من العلم والسنّة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم: فقال ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وقال الضحّاك: أما الكهف فهو غار الوادي، والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد: الرقيم كتاب بنيانهم، ويقول بعضهم هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف. وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ ﴿كتاب مرقوم﴾ وهذا هو الظاهر من الآية وهو اختيار ابن جرير، قال الرقيم فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول قتيل وللمجروح جريح، والله أعلم.

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ=

وقوله تعالى : ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا، ﴿وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً». وفي المسند عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»، وقوله: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة ﴿ثم بعثناهم﴾ أي من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين﴾ أي المختلفين فيهم ﴿أحصى لما لبثوا أمدا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً. وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة، يعني الحلق، فألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم، أي اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو، ﴿وزدناهم هدى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وزدناهم هدى﴾، كما قال: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾، وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها، وكان لها ملك جبار عنيد يقال له (دقيانوس) وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم

= قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه، وإنكارهم ما جاء به من الفضيلة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل الله: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ الآية.

ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض؛ فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم، واتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عزّ وجلّ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً﴾ و «لن» لنفي التأبيد: أي لا يقع منا هذا أبداً لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لقد قلنا إذاً شططاً﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً، ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً، ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾، يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال إن ملكهم تهددهم وتوعدهم وأمر بنزع لباسهم عنهم وأجّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»(١)، ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾: أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته﴾: أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿ويهيئ لكم من أمركم﴾ الذي أنتم فيه، ﴿مرفقاً﴾ أي أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك، فيقال إنه لم يظفر بهم، وعمّى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيّه محمد ﷺ وصاحبه الصدّيق حين لجأ إلى (غار ثور).

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

أخبر تعالى أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذات اليمين﴾، قال ابن عباس ﴿تزاور﴾: أي تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب. وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً؛ ولو كان من جهة الغرب لما

(١) الحديث: أخرجه البخاري وأبو داود عن أبي سعيد.

دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد. وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿ تقرضهم ﴾ تتركهم، وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه فقال: ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ﴾، قال مالك: تميل، ﴿ ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ﴾ أي في متسع منه داخلاً، بحيث لا تصيبهم، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس، ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ ثم قال: ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

ذكر أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى، وقوله تعالى: ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾، قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين، قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض، وقوله: ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ الوصيد الفناء، وقال ابن عباس: بالباب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم، كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جنب، وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن، وقوله تعالى: ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

۞ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم، وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً، وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿ كم لبثتم ﴾؟ أي كم رقدتم؟ ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا:

﴿ أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ أي فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ أي أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾، وقوله: ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقوله ﴿ وليتلطف ﴾ أي في خروجه وإيابه، يقولون وليختف كل ما يقدر عليه، ﴿ ولا يشعرن ﴾ أي ولا يعلمن ﴿ بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ أي إن علموا بمكانكم ﴿ يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونكم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوكم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتموهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾: أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ ذكر غير واحد من السلف، أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكّر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه، ويقول إن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم، ويقولون لعل هذا وجد كنزاً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة، لعله وجدها من كنز، وممن أنت؟ فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس، وفيها دقيانوس فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف – ملك البلد وأهلها – حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال لهم دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه يندوسيس، ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عزّوجلّ، فالله أعلم. وقوله ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾: أي كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر

القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾. حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين (**أحدهما**) : أنهم المسلمون منهم، و (**الثاني**) : أهل الشرك منهم، فالله أعلم.

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، ولما ضعف القولين الأولين[1] بقوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد. ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾، فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر، وقوله: ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا، وقوله ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾: أي من الناس. قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عزّ وجلّ، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة. فكانوا ليلهم ونهارهم في عبادة الله، يبكون ويستغيثون بالله. قال تعالى: ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾: أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد إلى مشيئة الله عزّ وجلّ علام الغيوم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « قال سليمان ابن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة – وفي رواية مائة امرأة – تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له – وفي رواية قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ – والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته ». وفي رواية: « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون ». وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول

(١) القائلون بالثلاثة: اليهود، والقائلون بالخمسة: النصارى، كما ذكره السُّدي.

النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم»، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له[1]، وقال ابن عباس في الرجل يحلف، له أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ ذلك، ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحنث. قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك، لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم. وقال عكرمة ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: إذا غضبت. وقال الطبراني، عن ابن عباس في قوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ أن تقول إن شاء الله. وروى الطبراني أيضاً عنه استثن إذا ذكرت، وقال هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه، ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى، لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكرُ الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾. وقوله: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك.

وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ، بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله، أعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية. وهي ثلثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلثمائة وازدادوا تسعاً، وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومن أطلعه عليه من خلقه[2]. وقوله ﴿أبصر به وأسمع﴾ أي إنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روي عن قتادة في قوله ﴿أبصر به وأسمع﴾: فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقوله ﴿ما لهم

---

(١) قاله أبو العالية والحسن البصري.

(٢) هذا قول جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقال قتادة في قوله: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين﴾ أنه قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿الله أعلم بما لبثوا﴾، والظاهر أنه إخبار من الله لا حكاية عنهم كما قال ابن جرير.

من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير، ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى النـاس، ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل، وقوله ﴿ولن تجـد من دونه ملتحداً﴾ قال مجاهد: ﴿ملتحداً﴾ ملجأ، وعن قتادة: ولياً ولا مولى، قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾، وقوله: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويحمدونـه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية. عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم، قـد بدلت سيئاتكم حسنات»[2]. وقال الطبراني، عن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف، قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية، فخرج يلتمسهم فوجد قومـاً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم»، وقوله: ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي شغل عن الدين وعبادة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

ربه بالدنيا، ﴿وكان أمره فرطاً﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾.

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم بـه من ربكم، هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إنا اعتدنا﴾ أي أرصدنا ﴿للظالمين﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ناراً أحـاط بهم سرادقها﴾ أي سورها، وعن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة»[١]. وقال ابن عباس ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ قال: حائط من نار، وقوله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ، مثل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره، وقال الضحّاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال ﴿يشوي الوجوه﴾: أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل، قال: كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه»[٢]. وعن النبي ﷺ في قوله ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، يقول الله تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بمـاء كالمهـل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾[٣]. وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم، فيأكلون منها فاجتثت جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بمـاء كالمهل، وهو الذي قـد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قـد سقطت عنها الجلود، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بئس الشراب﴾ أي بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم﴾، وقال تعالى: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي حارة، كما قال تعالى: ﴿وبين حميم آن﴾ ﴿وساءت مرتفقاً﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قـال في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾.

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى

(١) أخرجه أحمد والترمذي في صفة النار وابن جرير في تفسيره.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي.
(٣) أخرجه عبدالله بن المبارك عن أبي أمامة مرفوعاً.

مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا بـه وعملوا بما أمروهم بـه من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن الإقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم، قـال فرعون ﴿ وهذه الأنهـار تجري من تحتي ﴾ الآية. ﴿ يحلون ﴾ أي من الحلية ﴿ فيهـا من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفصّله ههنا فقال ﴿ ويلبسون ثيـاباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾ فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج، وفيه بريق. وقوله: ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد ههنا - ومنه الحديث الصحيح: « أما أنا فلا آكل متكئاً » ، والأرائك جمع أريكة وهي السرير تحت الحجلة ، عن قتادة ﴿ على الأرائك ﴾ قال: هي الحجال، وقال غيره: السرر في الحجال، وقوله ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾: أي الجنة ثواباً على أعمالهم، ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار : ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾، وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ .

* وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة(1). ولهذا قال :

(١) نقل السهيلي: عن محمد بن الحسن المقري : اسم الخيِّر من الرجلين (تمليخا) واسم الآخر (فوطيس) وأنهمـا كـانا شريكين، ثم اقتسما المال، فصار لكل واحـد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً وكسا العراة، وبالألف الثالثة طعامـاً وأطعم الجياع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً - وأما الآخر : فنكح بماله نساء ذات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فنمت له نمـاء مفرطـاً، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى . وأدركت الأول الحاجة فأراد أن يستأجر نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت إلى شريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح لي، فجاء فلم يكد يصل إليه من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه سأله=

﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي لم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿ وكان له ثمر﴾ قيل، المراد به المال، وقيل: الثمار، وهو أظهر ههنا، ﴿ فقال﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ﴿ لصاحبه وهو يحاوره﴾ أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفر. وقوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أي بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال﴿ وما أظن الساعة قائمة﴾ أي كائنة، ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكوننّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾، وقال ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً﴾ .

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ الآية، أي كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، ولهذا قال المؤمن ﴿ لكنَّ هو الله ربي﴾: أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿ ولا أشرك بربي أحداً﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل

= حاجته، قال: ألم أكن قاسمتك المال شطرين، فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله، ما هو خير منه وأبقى. قال: أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة، وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان. أو ما ترى ما صنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المال؟ وذلك أني كسبت وسفهت أنت، أخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله في القرآن من الإحاطة بثمرها وذهابها أصلاً. وفي عجائب الكرماني، قيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن اسمه (تمليخا) وقيل: (يهوذا)، والآخر كافر اسمه (نطروس) وهما المذكوران في سورة الصافات ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدقين﴾ الآية.

منك مالاً وولداً﴾، هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت»[1]. وكان يتأول هذه الآية: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

وقال أبو هريرة، قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال، قلت: فداك أبي وأمي، قال: «أن تقول لا قوة إلا بالله». قال أبو بلخ وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم»[2]. وقوله: ﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حسباناً من السماء﴾، قال ابن عباس والضحاك: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾، أي بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا ينبت شيئاً، وقوله ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض. فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾: أي جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾، والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه تقلده أعنتها صفوفاً

بمعنى نائحات عليه.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: ﴿وأحيط بثمره﴾ بأمواله وبثماره ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن، من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عزّ وجلّ، ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق﴾ أي الموالاة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فلما

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا بـه مشركين﴾. وكقوله إخباراً عن فرعون ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلّه إلا الذي آمنت بـه بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾، ومنهم من كسر الواو من ﴿الوِلاية﴾ أي هنالك الحكم لله الحق، كقوله: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ الآية. ولهذا قال تعالى ﴿هو خير ثواباً﴾: أي جزاء ﴿وخير عقباً﴾ أي الأعمال التي تكون لله عزّ وجلّ ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿واضرب﴾ يا محمد للنـاس ﴿مثل الحياة الدنيا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط بـه نبات الأرض﴾ أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور، والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿أصبح هشيماً﴾ يابساً ﴿تذروه الرياح﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ أي هو قـادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل النـاس والأنعام﴾ الآية، وقال في سورة الحديد: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾ الآية. وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة». وقوله: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ كقوله: ﴿زين للنـاس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾: أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وقال ابن عباس: ﴿الباقيـات الصالحات﴾: سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن ﴿الباقيات الصالحات﴾ ما هي؟ فقال: هي لا إلّه إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وروي عن سعيد بن المسيب قال: الباقيـات الصالحـات (سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) وقال محمد بن عجلان عن عمارة قـال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إلّه إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر هنّ الباقيات الصالحات»[1]. وفي الحديث: «أما إنه سيكون بعدي أمراء

---

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة.

يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، ألا و إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر من الباقيات الصالحات »[1] . وقال ابن عباس قوله ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض، وعنه: هي الكلام الطيب، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

* وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً﴾: أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾، يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتاً، أي لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالى ﴿وترى الأرض بارزة﴾ أي بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة ﴿وترى الأرض بارزة﴾: لا حجر فيها ولا غيابة، وقال قتادة: لا بناء ولا شجر، وقوله: ﴿وحشرناهم فلم نغادرهم منهم أحداً﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً. كما قال ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، وقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، وقوله: ﴿وعرضوا على ربك صفاً﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾، وقوله: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن. وقوله: ﴿ووضع الكتاب﴾ أي كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير، ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة، ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

وإن صغر، إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها، وقوله ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وفي الحديث: « يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، يقال هذه غدرة فلان بن فلان »[1]. وقوله: ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ الآية، وقال: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً - إلى قوله - حاسبين ﴾ والآيات في هذا كثيرة.

روى الإمام أحمد، عن جابر بن عبدالله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا (عبدالله بن أنيس)، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يحشر الله عز وجلّ الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غرلاً بهماً ». قلت: وما بهماً؟ قال: « ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه، حتى اللطمة قال: قلنا، كيف وإنما نأتي الله عزّ وجلّ حفاة عراة غرلاً بهماً؟ قال: « بالحسنات والسيئات »[2].

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، فقال تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾، وقوله ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ أي خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم: (خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[3]. ونبّه تعالى ههنا على أنه من الجن،

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٣) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

أي على أنه خلق من نار كما قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن. كما أنّ آدم عليه السلام أصل البشر(١). وقوله: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها، إذا خرجت منه للعيث والفساد، ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ أي بدلاً عني، ولهذا قال: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾، وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها، ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون – إلى قوله – أفلم تكونوا تعقلون﴾.

* مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني، عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، وليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾، ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال مالك: أعواناً.

* وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي في دار الدنيا، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾، وقوله: ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾، كما قال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ الآية، وقال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال ابن عباس: مهلكاً، وقال قتادة: موبقاً وادياً في جهنم. وقال ابن جرير، عن أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال: واد في جهنم من قيح ودم، وقال الحسن البصري: موبقاً: عداوة، والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم او غيره، والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير، قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا

(١) رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴾، وقوله ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز، وقوله ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها. وقال ابن جرير، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة ».

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

ويقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة. قال الإمام أحمد، عن علي بن أبي طالب أخبره أنَّ رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: « ألا تصليان »، فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول: ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾[1].

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً كما قال أولئك لنبيهم: ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾، وآخرون قالوا: ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾، وقالت قريش: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، ثم قال: ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ من غشيانهم بالعذاب، وأخذهم عن آخرهم ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أي مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿ يجادلون بالباطل ليدحضوا به ﴾ أي ليضعفوا به الحق، الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، ﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب، ﴿ هزواً ﴾: أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب.

(١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ
لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ
أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكّر بآيات الله فأعرض عنها، أي تناساها وأعرض عنها ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إنا جعلنا على قلوبهم﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿أكنة﴾ أي أغطية وغشاوة، ﴿أن يفقهوه﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾: أي صمماً معنوياً عن الرشاد، ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾، وقوله: ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾: أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب﴾، كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾، وقال: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ والآيات في هذا كثيرة شتى، ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾: أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد، ولا معدل، وقوله: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾: أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذري.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ
رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سبب قول موسى لفتاه وهو (يوشع بن نون) هذا الكلام، أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك ﴿لا أبرح﴾: أي لا أزال سائراً ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال قتادة وغير واحد: هما (بحر فارس) مما يلي

المشرق و (بحر الروم) مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان، عن عبدالله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال ابن عباس ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ قال: دهراً، وقوله: ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿ واتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ أي مثل السرب في الأرض، قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر، وقال قتادة: سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً، وقوله: ﴿ فلما جاوزا ﴾: أي المكان الذي نسيا الحوت فيه، ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصباً ﴾ أي تعبا، ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾، ولهذا قال: ﴿ فاتخذ سبيله ﴾ أي طريقه ﴿ في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿ فارتدا ﴾ أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقصان آثار مشيهما، ويقفوان أثرهما ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾، وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله بـه، قال له فتاه: ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾، قال فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال، فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾، قال له الخضر: ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من الواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا

بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ! لقد جئت شيئاً إمراً ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ . قال، وقال رسول الله ﷺ وعلى آله – فكانت الأولى من موسى نسياناً، قال، وجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هم يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾، قال وهذه أشد من الأولى، ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي مائلاً فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه﴾ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً﴾، وكان يقرأ: ﴿وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين﴾(١) .

وروى الزهري: عن ابن عباس، أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري، في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر، فر بها أبي بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى، الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع، فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، قال موسى ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ فوجدا عبدنا خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

* قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام، لذلك الرجل العالم، وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر. ﴿قال له موسى هل اتبعك﴾ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم، وقوله ﴿أتبعك﴾ أي أصحبك وأرافقك، ﴿على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها

(١) أخرجه البخاري في صحيحة عن ابن عباس عن أبي كعب رضي الله عنهما .

﴿قال﴾ الخضر لموسى ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر عليَّ ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة، التي اطلعت أنا عليها دونك، ﴿قال﴾ أي موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ أي على ما أرى من أمورك، ﴿ولا أعصى لك أمراً﴾ أي ولا أخالفك في شيء، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾ أي ابتداء ﴿حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي حتى أبدأك أنا به، قبل أن تسألني. عن ابن عباس قال: سأل موسى عليه السلام ربه عزّ وجلّ فقال: أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى، قال، أي رب: هل في أرضك أحد أعلم مني؟ قال: نعم، قال: فمن هو؟ قال: الخضر، قال: وأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت، قال، فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلّم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أحب أن أصحبك، قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى، قال: فإن صحبتني ﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾، قال فسار به في البحر، حتى انتهى إلى مجمع البحرين، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه، قال، وبعث الله الخطاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزأ، قال: يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به، فمن ثم أمر أن يأتي الخضر، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك(١).

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني بغير أجرة تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولجت، أي دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رقعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ وهذه اللام لام العاقبة. لا لام التعليل. كما قال الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب

﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾ قال مجاهد: منكراً، وقال قتادة: عجباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾، يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت، ﴿قال﴾ أي موسى ﴿لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً﴾: أي لا تضيّق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ﴿فانطلقا﴾ أي بعد ذلك ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾، وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم فقتله، وروي أنه اجتز رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفي رواية اقتلعه بيده، والله أعلم. فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال ﴿أقتلت نفساً زكية﴾: أي صغيرة، لم تعمل الحنث، ولا عملت إثماً بعد، فقتلته ﴿بغير نفس﴾: أي بغير مستند لقتله ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾: أي ظاهر النكارة ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾: أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾: أي قد أعذرت إليّ مرة بعد مرة، قال ابن جرير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، لكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً».

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما، إنهما ﴿انطلقا﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾، روي عن ابن سيرين أنها الإيكة، وفي الحديث: «حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً» أي بخلاء، ﴿فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل، والانقضاض هو السقوط، وقوله ﴿فأقامه﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سأنبئك بتأويل﴾ أي بتفسير ﴿ما لم تستطع عليه صبراً﴾.

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يأخذ كل سفينة﴾ صالحة أي جيدة ﴿ غصباً﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون بـه غيرها، وقد قيل إنهم أيتام، وروى ابن جريج، أن اسم ذلك الملك، (هدد بن بدد)، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: « الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً »[1]، ولهذا قال: ﴿ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: « لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له »، وقال تعالى: ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، وقوله: ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ أي ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، وقال قتادة: أبر بوالديه، وقيل لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم، قاله ابن جريج.

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية﴾، وقال ههنا: ﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿ فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ يعني مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة: كان تحته مال مدفون لهما، وهو

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

(٢) قال السهيلي في الغلامين اليتيمين: هما أصرم وصريم ابنا كاشح، والأب الصالح الذي حفظ كنزها من أجله كان بينهما وبينه سبعة آباء، وقيل عشرة، ولم يكونا أبنيه من صلبه فيما ذكر عن ابن عباس، وذكر السيوطي: ان اسم الملك (هدد ابن بدد) واسم أبوي الغلام المقتول (أبرا) وأمه (سهواً) وقد أبدلهما الله خيراً منه بجارية ولدت نبياً كان بعد موسى اسمه (شمعون).

ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال ابن عباس: كان تحته كنز علم، وعن الحسن البصري أنه قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1]، وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً، وهذا الذي ذكر - وإن صح - لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر، كان مودعاً فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن، ووردت به السنّة، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً، وتقدم أنه كان الأب السابع فالله أعلم. وقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة﴾ وقال في السفينة: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري، لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً بل كان ولياً، فالله أعلم. وحكي في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولان، ومال النووي وابن الصلاح إلى بقائه، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾، وبقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل[2].

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من تحته خضراء»[3] والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، وقيل المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تسطع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فما

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن الحسن البصري، وورد في حديث مرفوع رواه الحافظ البزار عن أبي ذر بمثله.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد ورواه أيضاً عبد الرزاق. (٣) الراجح قول أهل الحديث بموت الخضر للأدلة المذكورة.

اسطاعوا أن يظهروه﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ وهو أشق من ذلك، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها، أنه (يوشع بن نون) وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام.

* ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ ﴿ويسألونك﴾ يا محمد ﴿عن ذي القرنين﴾ أي عن خبره، وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب، يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية ما يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف. وقد ذكر الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به، وتبعه، وكان وزيره الخضر عليه السلام، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب (البداية والنهاية) بما فيه كفاية والحمد لله. وقال بعض أهل الكتاب: سمّي ذا القرنين لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال سفيان الثوري، عن أبي الطفيل: سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين فقال: كان عبداً ناصحاً لله فناصحه، دعا قومه لله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين، ويقال إنه سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب. وقوله: ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً، ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقوله: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾، قال ابن عباس: يعني علماً[1]، وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها، وقال عبدالرحمن بن زيد، تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم، وعن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي رضي الله عنه، وسأله رجل عن ذي القرنين، كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله سخّر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد[2].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ﴾

(١) وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسُّدي وقتادة والضحّاك وغيرهم.
(٢) ذكره الضياء المقدسي عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد.

﴿عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

قال ابن عباس ﴿فأتبع سبباً﴾: يعني بالسبب المنزل. وقال مجاهد ﴿فأتبع سبباً﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها. وقال سعيد بن جبير: علماً، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك. وقوله: ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾: أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم، وقوله ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾: أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى ﴿إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾: أي من طين أملس، وقد تقدم بيانه. وقال ابن جرير: كان ابن عباس يقول ﴿في عين حمأة﴾ ثم فسرها ذات حمأة، قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وبه قال مجاهد وغير واحد. وعن أُبي بن كعب أن النبي ﷺ أقرأه حمئة، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية يعني حارة. وكذا قال الحسن البصري، وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب، ولا منافاة بين معنييهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ووجد عندها قوماً﴾: أي أُمّة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمّة عظيمة من بني آدم(١)، وقوله: ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم وأظفره بهم، وخيّره إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه، فيما أبداه عدله وبيانه في قوله ﴿أما من ظلم﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿فسوف نعذبه﴾، قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحمي لهم النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة فتدخل بيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم. وقوله ﴿ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء. وقوله: ﴿وأما من آمن﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فله جزاء الحسنى﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عزّ وجلّ، ﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠
كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾

(١) قال السهيلي: هم أهل جابرص، ويقال لها بالسريانية: جرجيا يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح.

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمّة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض، طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى ﴿ وجدها تطلع على قوم﴾ أي أمة ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، قال سعيد بن جبير: كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك. وقال الحسن في قول الله تعالى ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم[1]، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم. وقال ابن جرير: لم يبنوا فيها بناء قط ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل. وقوله ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ قال مجاهد والسدي: علماً، أي نحن مطلعون على جميع أحواله، وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

* ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ ثم أتبع سبباً﴾ أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض، حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين: «أن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثّرتاه، يأجوج ومأجوج»[2]. وفي مسند الإمام أحمد، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»، قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، وقال، إنما سمي هؤلاء تركا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة، وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي عن الحسن البصري. (٢) أخرجه البخاري ومسلم.

سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي لاستعجام كلامهم، وبعدهم عن الناس، ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا﴾ قال ابن عباس: أجراً عظيماً، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿ما مكّني فيه ربي خير﴾ أي إنّ الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ الآية. وهكذا قال ذو القرنين، الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني بقوة، أي بعملكم وآلات البناء ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زبر الحديد﴾ والزبر، جمع (زبرة) وهي القطعة منه[١] وهي كاللبنة يقال كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد عليه ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً[٢] ﴿قال انفخوا﴾ أي أجّج عليه النار، حتى صار كله ناراً ﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال ابن عباس والسدي: هو النحاس[٣]، زاد بعضهم المذاب، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وأسلنا له عين القطر﴾، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال: «انعته لي»، قال كالبرد المحبّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء، قال: «قد رأيته»[٤]، وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه وجهز معه جيشاً سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتونه له إذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهق، لا يستطاع، ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب، ثم قال الله تعالى:

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج، إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلا بما يناسبه، فقال: ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾، وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه، فأما الحديث الذي رواه الإمام

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

(٢) قال السيوطي عن الضحّاك: هما من قبل أرمينية وآذربيجان أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) وهو قول مجاهد وعكرمة والضحّاك وقتادة.

(٤) أخرجه ابن جرير وهو حديث مرسل.

أحمد، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: « يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم، ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيستثني فيعودون إليه، وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه، ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: « والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكر شكراً من لحومهم ودمائهم »(١)، ففي رفعه نكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته، وشدته ويؤيد ما قلناه، من أنهم لم يتمكنوا من نقبه، ومن نكارة هذا المرفوع، قول الإمام أحمد، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بأصبعيه السبابة والإبهام »، قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم إذا كثر الخبث ».

﴿ **قال هذا رحمة من ربي** ﴾ أي لما بناه ذو القرنين ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾، أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ إي إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكاء ﴾ أي ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ﴾ أي مساوياً للأرض، وقال عكرمة في قوله ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ قال: طريقاً كما كان، ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة. وقوله: ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس، ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي، في قوله ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل يوم القيامة، وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق ﴾ الآية. وهكذا قال ههنا، ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾، وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾، قال: إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن، وقوله: ﴿ ونفخ في الصور ﴾، والصور كما جاء في الحديث، قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، واستمع متى يؤمر »، قالوا: كيف نقول؟ قال: « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا »، وقوله: ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾، ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾.

---

(١) وأخرجه ابن ماجة أيضاً والترمذي، وقال الترمذي: إسناده جيد قوي، واختار ابن كثير أن يكون موقوفاً.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك»[1]، ثم قال مخبراً عنهم ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾ أي تغافلوا وتعاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾، وقال ههنا ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك وينتفعون به ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾

عن مصعب قال: سألت أبي، يعني سعد بن أبي وقاص، عن قول الله: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين»[2]. وقال علي بن أبي طالب والضحّاك وغير واحد: هم الحرورية، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه، أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص، وإنما هي عامة في كل من عبدالله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، وقال تعالى: ﴿والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿قل هل ننبئكم﴾ أي نخبركم ﴿بالأخسرين أعمالاً﴾، ثم فسرهم فقال: ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وقوله ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾:

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود. (٢) أخرجه البخاري في صحيحه في باب التفسير.

أي جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير، روى البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة – وقال – اقرأوا إن شئتم: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ »، وقال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها »، قال قرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له، فلما قام على النبي ﷺ قال: « يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً »[1]، وعن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرأوا: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[2]. وقوله ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم، واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً استهزأوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: هو البستان بالرومية، وقال الضحّاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب، وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وقد روي عن النبي ﷺ: « الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها »[3]. وفي الصحيحين: « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة »، وقوله تعالى ﴿ نزلاً﴾ أي ضيافة فإن النزل الضيافة، وقوله ﴿ خالدين فيها﴾ أي مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿ لا يبغون عنها حولاً﴾ أي لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر:

فحلّت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها، ولا عن حبها أتحول

وفي قوله تعالى: ﴿ لا يبغون عنها حولاً﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً، ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه،

(١) أخرجه الحافظ البزار.
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره.
(٣) أخرجه ابن جرير عن سمرة مرفوعاً.

لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر، وهلم جراً، بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾[1] يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

* قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾، فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت بـه، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أنما إلهكم﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إله واحد﴾ لا شريك له، ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهو الذي يراد بـه وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بدَّ أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، وقـد روي عن طاووس قال، قال رجل: يا رسول الله! إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هـذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[2]، وجاء رجل إلى عبادة بن الصامت، فقال أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه.

وروى الإمام أحمد، عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني. سمعت رسول الله يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفيـة»، قلت: يا رسول

---

(١) أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قـال، قالت قريش لليهود: اعطونا شيئاً نسأل عنه هـذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح – إلى – وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، وقـال اليهود: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقـد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ الآية.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن طاووس وهو حديث مرسل.

الله ! أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه »(١). (**حديث آخر**): قال الإمام أحمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يرويه عن الله عزّ وجلّ أنه قال: « أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » . (**حديث آخر**) : قال الإمام أحمد، عن أبي سعيد ابن أبي فضالة الأنصاري، وكان من الصحابة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »(٢). (**حديث آخر**) : عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة، في صحف مختمة، فيقول الله: ألقوا هذا واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً، فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي »(٣). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عزّ وجلّ »(٤).

[آخر تفسير سورة الكهف ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة .
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة .
(٣) أخرجه الحافظ أبو بكر البزار .
(٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي .